بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

نظرة إلى الحب في الإسلام

الأستاذ محمد السماك

عمّان - المملكة الأردنيّة الهاشميّة

نظرة إلى الحب في الإسلام

الأستاذ محمد السماك

من القيم الأكثر تداولاً في الأدبيات الدينية، السلام والحب.

ومن الوقائع الأكثر شيوعاً في الممارسات الدينيّة، الحرب أو الصراعات المسلحة والكراهية بما هي رفض للآخر وتنكّر له.

السلام والحب توأمان، أو وجهان لحالة إنسانية واحدة. فلا سلام من دون حب، ولا حب إلا للآخر. فالسلام هو ثمرة من ثمار الحب، سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الاجتماعي.

في الأديان السماوية الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية، يعتبر السلام اسماً من أسماء الله الحسنى، ولذلك فإن الدعوة إلى السلام بين بني البشر تشكّل قاعدة أساسية وثابتة من القواعد التي يقوم عليها الإيمان بالله، والالتزام بمقاصد تشريعاته. ولكن في الواقع، شهد العالم وعلى مدى قرون عديدة، حروباً باسم الدين. ولا يزال يعاني حتى اليوم من صراعات وأحداث دامية باسم الدين. إن هذا السلوك اللاإنساني يتناقض مع الحب باعتباره أحد أهم الثوابت الإيمانية.

ثمة ما هو أخطر من ذلك، فحب الذات هو أسوأ أنواع كراهية الآخر.

لذلك لا بد من تعريف الآخر، وهو تعريف لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن الأنا. إن فهم الآخر، والتفاهم معه، ومن ثم محبته، لا تتحقق من دون أن تتسع الأنا له. وبالتالي، كلما سما الإنسان بنفسه وترفّع عن أنانيته، كلما أوجد في ذاته مكاناً أرحب للآخر. فالحقيقة ليست في الأنا، إنها تتكامل مع الآخر حتى في نسبيتها وهي لا تكتمل في إطلاقيتها إلا بالله، فالله وحده هو الحقيقة المطلقة، وهو الحب المطلق. والحوار بحبّ مع الآخر هو اكتشاف للأنا وإضاءة ساطعة على الثغرات وعلى النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية.

وكلما وضع الإنسان يده على واحدة من هذه الثغرات والنواقص، كلما اكتشف الحاجة إلى الآخر وكلما ازداد حاجةً إلى الحوار معه وكلما ازداد حباً له، ذلك أن حب الذات، أو الحب الذي تحتكره الذات هو صورة من صور احتكار الحق والحقيقة، ومظهر من مظاهر تخطئة الآخر المختلف وإدانته وإنكاره والتنكّر له وحتى إلغائه. بمعنى أنه إذا لم يكن الحب هو حب الآخر، فإن النرجسية الذاتية تؤدي إلى إخراج الآخر من الأنا، أي من دائرة الحب، ومن حقه في أن يكون محبوباً لذاته الإنسانية.

يتحدّث فرويد عن الاختلافات بين الناس، ويقول إنه مهما كانت هذه الاختلافات قليلة ومحدودة فإننا نجعل منها أساساً في شخصيتنا. ولكن هذا الأساس قابل لأن يتحوّل إلى جدار يعزل الآخر عن الحب الذي لا يكون الواحد منا إنساناً من دونه. أي أن نحب المختلف عنا، والمختلف معنا. وتالياً أن نحب التنوّع الذي ما كان ليقوم إلا باختلاف الأنواع والألوان واللغات والثقافات والعادات والتقاليد، وكذلك الأديان والعقائد.

فالاختلاف بين الناس وفي الكون، هو مظهر من مظاهر عظمة الخالق، وآية من آياته. وهو قائم ومستمر بإرادة الله حتى يوم الدين. ولذلك فإن التعامل مع هذا التنوّع بحب، هو في حد ذاته وجه من وجوه محبة الناس لله الخالق والمصوّر، ووجود هذا التنوّع في أساس الخلق هو وجه من وجوه محبّة الله للناس. أما المحبة بين الناس أنفسهم فلا يجوز أن تكون قائمة على الشفقة أو العطف، أي على فوقية المحِب. إنما تقوم على التقبّل والاحترام أي على الندّية والمساواة.

وهنا تبرز الفوارق بين التسامح والسماحة. فالتسامح من حيث هو تعبير عن محبة الآخر يعكس مشاعر فوقية. ذلك أن المتسامِح يتنازل عن حق له، وينزل من فوقيّته إلى مستوى الآخر المتسامَح معه، فيعذره ويقبل أن يحبه رغم أنه قد لا يستحق الحب.

أما السماحة من حيث إنها في الجوهر تعبير عن حق الآخر في أن يكون، وفي أن يكون مختلفاً، فإنها تعني أن نحب الآخر لذاته المختلفة، وحتى لما هو موضع خلاف معه، وهي بذلك تعكس ندية

لا فوقية فيها لأحد ولا دونيّة لآخر . الأمر الذي يعكس صورة هي من أصدق معاني الحب ومن أصفى تجلياته في الإيمان الإسلامي .

وهنا أذكر أبياتاً للمتصوّف الكبير ابن عربي يقول فيها :

لستُ أنا ولستُ هو فمن أنا ومن هو
فيا هو قل أنت أنا ويا أنا هل أنت هو
لا أنا ما هو أنا ولا هو ما هو هو

كما أذكر بيتاً لابن الفارض يقول فيه:

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا رُويت

قبل أكثر من ثلاثة قرون، وضع الشيخ الدمشقي عبد الغني النابلسي مخطوطة كتاب سمّاه "غاية المطلوب في محبة المحبوب" والمخطوط في مضمونه وفي توقيته كان رداً على بعض فقهاء دمشق في ذلك الزمان – عام ١٦٨٦ – الذين كانوا يحرّمون حتى الموسيقى والقهوة والتبغ، وفي هذا المخطوط (الذي كان المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون أول من حققه، والذي نشرت الباحثة الإيطالية غلوريا صاموئيلا باغاني دراسة جامعية عنه في عام ١٩٩٤)، حاول الشيخ النابلسي أن يبيّن "أن الحب الإنساني وما يتصل به حسياً وجمالياً يسمو إلى ما هو إلهي، وأن المحبة الإنسانية والمحبة الإلهية واحدة تتعلق بـ "المخلوق لأنه فعل الخالق ثم تتصل بالخالق" .

وإذا كان من المؤسف أنه حتى يومنا هذا لا يزال هناك فقهاء يستسهلون التحريم درءاً لفتنة الاسترسال في الإباحة (مع أن الأصل والأساس هو الحلال)، فإننا لا نذهب إلى ما ذهب إليه الشيخ النابلسي الذي وصف فقهاء زمانه المعارضين لنظريته في الحب بأنهم "جهلة وأن كتب الشريعة بريئة منهم" .

إن كل ما نستطيع قوله هو أن الله كرّم الإنسان لذاته الإنسانية، وهذا تكريم إلهي يتجاوز الجنس واللون واللغة وحتى العقيدة الدينية . وعندما تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿ ولقد كرمنا بني

آدم﴾ [الإسراء: ٧٠]، فإن معنى ذلك أن التكريم الإلهي هو تكريم مطلق لا استثنائية فيه ولا تمييز. ثم إنه ما كان للإنسان أن يتمتع بهذا التكريم الإلهي لو لم يكن يتمتع في الأساس بحب إلهي. ومن علامات ذلك عدم الإكراه في الدين.

فعندما يرسي الإسلام هذه القاعدة الشرعية "لا إكراه في الدين" فإنه بسماحته يعطي الإنسان الحرية للتمييز ويحمّله مسؤولية الاختيار، ويهيئ له الأسباب، ليعمل عقله وفكره للوصول إلى الحقيقة الإلهية.

فالإيمان الإرادي القوي مناقض لذلك النوع من الإيمان المنغلق الذي يبلغ في تقوقعه درجة من التسلط على الذات يلغي معها الآخر ويسد عليه منافذ الإشراق ويعتّم على ذاته حتى يفقد القدرة على الرؤية، فتتقطع معه أوصال الحب، نابذاً ما لا يعرف، متعصباً لسوء ما يعرف معتبراً أنه وحده يملك الحقيقة المطلقة وإنه ومن معه يشكّلون الفرقة الناجية.

إن الإيمان بالاقتناع والاختيار وليس بالفرض والاحتكار يفتح آفاق الحب: الحب لله، والحب للإنسان، والحب للطبيعة، والحب للفنون، والحب للجمال.

فكما أنه لا إيمان بالإكراه، كذلك لا حبّ بالإكراه، وتالياً لا سلام بالإكراه.